المورد

مجلة تراثية فصلية
تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة
الجمهورية العراقية
المجلد الخامس عشر - العدد الاول ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

١

WWW.ATTAWEEL.COM

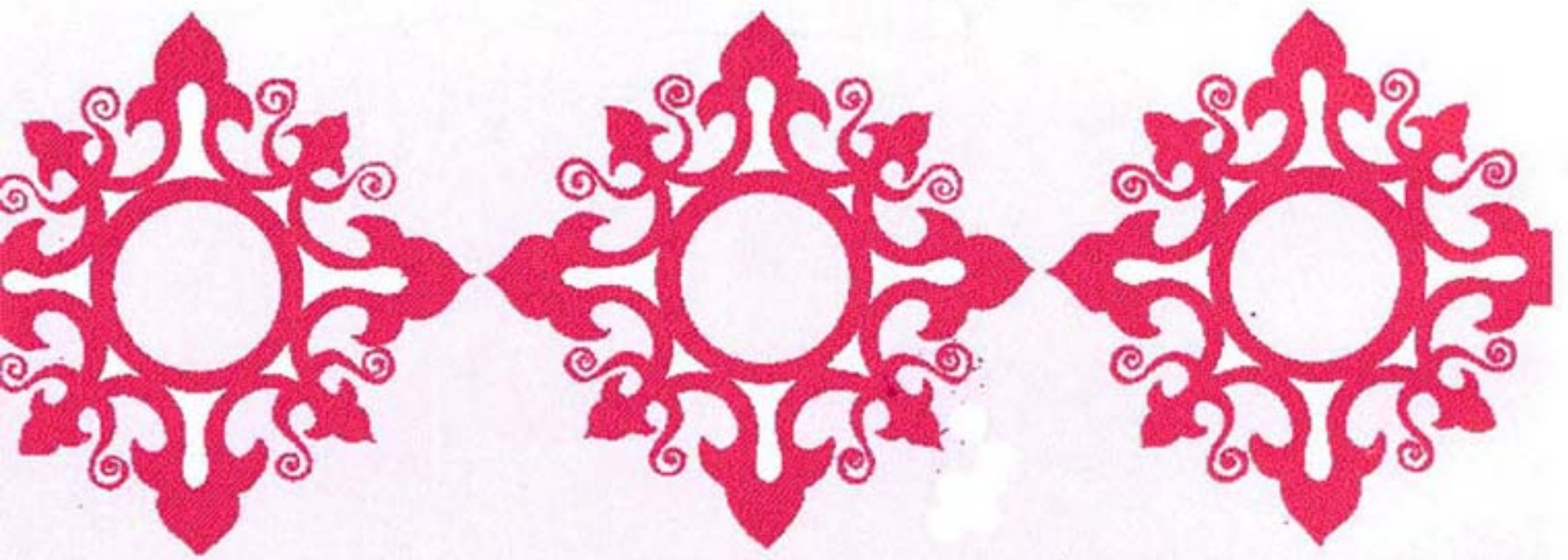

أسماء المدن ومحلاتها

حاجب الفيل
حياته وما تبقى من شعره

الدكتور
نوري حمودي القيسي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

يكتنف حياة حاجب الفيل غموض لا يختلف عن الغموض الذي اكتنف حياة كثير من الشعراء الذين لم يكتب لهم الظهور ولم تدرج حياتهم في اطار المشهورين او المعروفين وتظهر اخباره فجأة وهو ينقل الى الخليفة عبدالملك بن مروان (خلافته من ٦٥ـ٨٦هـ) صورة الجدب الذي اصاب العرب وفاء بما الزم به نفسه واكراما لابناء قومه الذين اضر بهم الجوع وروعهم الفقر ونزلت بهم المصائب واستبدت بهم الهموم وبعدها نراه يدخل على يزيد بن المهلب حين ولاه سليمان بن عبدالملك امر العراق (في حدود سنة ٩٦ للهجرة) ويذكر ابياتاً في رثاء اخيه معاوية بالبيضاء (ماء لبني عقيل ثم لبني معاوية بن عقيل وهو المنتفق) ويشير في قصيدته التي يودع ابنته ـ على سبيل التجسيد والتقليد ـ الى انها تتحدث بضمير الجماعة ؛ وتذكر الصبية والصغير والصغيرة والرضع وهي ايحاءات كما المحت في الدراسة الى ان ذكرها يأتي من باب الاثارة وليس من باب الحقيقة لعدم ورودها او الاشارة اليها في مواضع اخرى . ويخاطب مسلمة بن الوليد (توفي سنة ١٢٠هـ) في قصيدة يتحدث فيها عن مأساة ابناء قومه الذين اعدمهم العريان (صاحب الشرطة) وتتيه بقية حياته التي لم اجد لها ظلا الا في التحليل الذي وقفت عليه وانا اقرأ شعره لاستنباط حياته واستجلي وجوه مرحلته التي لم تظهر الا في هذه الومضات الباهتة والخفقات المتباعدة تاركا ترجيح المرحلة وما يمكن ان تقدمه النصوص الجديدة لمن يقف على جديد في حياته وحياة غيره ممن لم اتمكن من ايجاد ما يعينني على تقديم مادة اكثر مما وقفت عليه .

وتتضح ملامح الشاعر حاجب بن ذبيان المازني المعروف بحاجب الفيل من خلال قناتين هما مدائحه ليزيد بن المهلب ومهاجاته لثابت قطنة ولولاهما لما وقفنا على ما يعطي هذا الشاعر حقه من الدراسة او يعين على ادراك ما كان يتمتع به من شاعرية او يحفظ له ما عبر به عن احساسه في موضوعين كان لهما اثرهما في تحديد كثير من اسباب شهرته والتعريف به والوقوف عند اخباره . فهو من الشعراء الذين لم يدخلوا في اطار طبقات فحول الشعراء لابن سلام ؛ ويبدو انه لم يتمتع بالمواصفات التي حددها ابن سلام لنفسه وهو يضع منهج كتابه ولم يجد مكاناً في دائرة الشعر والشعراء ـ على الرغم من سعتها ـ لابن قتيبة ولم يأت على ذكره الآمدي في المؤتلف والمختلف ولم يعرض له المرزباني في معجم الشعراء ولم يجد له صاحب الخزانة

WWW.ATTAWEEL.COM

شاهداً ليعرف به كعادته حين يذكر شاهدا لشاعر وانما ظلت صورته تنعكس من خلال مهاجاته لثابت قطنة التي اوجزها ابو الفرج فقال : كان يزيد بن المهلب تقدم الى ثابت قطنة في ان يصلي بالناس يوم الجمعة فلما صعد المنبر ولم يطق الكلام قال حاجب الفيل يهجوه(١) [تنظر القطعة رقم ٨] . ثم يذكر سبب هجاء حاجب ذبيان المازني ـ وهو حاجب الفيل (والفيل لقب لقبه به ثابت قطنة وكعب الاشقري ـ ان حاجبا دخل على يزيد بن المهلب فلما مثل بين يديه انشده [تنظر القطعة رقم ٢] فامر له يزيد بدرع وسيف ورمح وفرس ، وقال له : قد عرفت ما شرطت لنا على نفسك ؟ فقال : اصلح الله الامير : حجتي بينة وهي قول الله عز وجل (والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون) فقال له ثابت قطنة : ما اعجب ما وفدت به من بلدك في تسعين ليلة ، مدحت الامير ببيتين ، وسألته حوائجك في عشرة ابيات ، وختمت شعرك ببيت تفخر عليه فيه ، حتى اذا اعطاك ما اردت حدت عما شرطت له على نفسك فاكذبتها كأنك كنت تخدعه(٢) . ولا يخفى ما في هذه الاقوال من استثارة وما تضمنه من نقد مقبول لما اثارته الابيات وكأن ثابت قطنة يحصي ابيات الشاعر ويفسر اغراضه ويتابع معانيه ويدخل من خلال الحاجة التي يريدها وقد جزأ القصيدة تجزئة معقولة وحصر غايتها في معادلة شخصية . ولم يكن يزيد بعيداً عن الصورة او غريباً عن الحدث المثار فجوابه يوحي بالمعرفة التامة بما كان يبغيه ثابت فقد كان رد يزيد قاطعاً حيث قال : مه يا ثابت ، فانا لا نخدع ، ولكنا نتخادع وسوغه ما اعطاه وامر له بالفي درهم ولج حاجب يهجو ثابتاً فقال فيه ..(٣)

لا يعرف الناس منه غير قطنته
وما سواها من الانساب مجهول

ويتابع ابو الفرج اسباب المهاجاة فيذكر ان حاجباً دخل يوماً على يزيد بن المهلب وعنده ثابت قطنة وكعب الاشقري ـ وكانا لا يفارقان مجلسه ـ فوقف بين يديه فقال له : تكلم يا حاجب فقال : ياذن لي الامير ان انشده ابياتا قال : لا حتى تبدا فتسأل حاجتك قال ايها الامير ، انه ليس احد ولو اطنب في وصفك موفيك حقك ، ولكن المجتهد محسن ، فلا تهجني بمنع الانشاد وتاذن لي فيه ، فاذا سمعت فجودك اوسع من مسألتي فقال له يزيد : هات فما زلت مجيداً محسناً مجملا (وهي عبارات اعجاب وثناء وتقدير) فانشده [تنظر القطعة ١٦] فقال له يزيد : سل حاجتك فقال : ما على الامير بها خفاء فقال : قل ، قال : اذاً لا اقصر ولا استعظم عظيماً اساله الامير اعزه الله مع عظم قدره ، قال : أجل ، فقل يفعل ، فلست بما تصير اليه اغبط منا ، قال : تحملني وتخدمني (تعطيني خادماً) وتجزل جائزتي فامر بخمسة تخوت (جمع تخت : وهو وعاء تصان فيه الثياب) ثياب وغلامين وجاريتين وفرس وبغل وبرذون وخمسة آلاف درهم فقال حاجب :

شم الغيث وانظر ويك اين تبعجت
كلاء تجدها في يد ابن المهلب

يداه يد يخزى بها الله من عصى
وفي يده الاخرى حياة المعصب

قال . فحسده ثابت قطنة وقال : والله لو على قدر شعرك اعطاك لما خرجت بملء كفك نوى ، ولكنه اعطاك على قدره وقام مغضباً وقال لحاجب يزيد بن المهلب : انما فعل الامير هذا ليضع منا باجزاله العطية لمثل هذا والا فلو انا اجتهدنا في مديحه ما زادنا على هذا وقال ثابت قطنة يهجو حاجباً ..(٤) فحاجب الفيل يأتي عرضاً في ثنايا حديث ابي الفرج عن ثابت قطنة ولو لم يكن سبب المهاجاة وارداً لما وقفنا على هذه الشذرات المتناثرة من حياته ، وقصائده في مدح يزيد تأتي في اسباب اثارة الهجاء بينه وبين ثابت ورب ضارة نافعة كما يقول المثل لانها خلدت لنا هذه النماذج الشعرية التي انفرد بها ابو الفرج بعد ان جاء بها لبيان اسباب المهاجاة ومع ما اثاره ثابت من اسباب ـ قد تبدو مقنعة ـ بتحريض يزيد بن المهلب عليه الا ان الاجوبة المقنعة والتقويم السليم والخصائص الفنية التي اضفاها يزيد على حاجب الفيل تؤكد قدرته الشعرية وتمكنه واجادته وهو يطلب منه المزيد من قول الشعر كما ورد في النص السابق . فحاجب الفيل قد نال رضى يزيد وهو يحاط باعداد كبيرة من الشعراء ويمدح بروائع القصائد وتضفي عليه اجل النعوت واجلاها ولكنه يبقى معجباً بشعر حاجب الذي تلاشى شعره في

(١) ابو الفرج . الاغاني ١٤/٢٤٨ (دار الثقافة) .
(٢) ابو الفرج الاغاني ١٤/٢٥٠ .
(٣) ابو الفرج . الاغاني ١٤/٢٥٠ .
(٤) ابو الفرج . الاغاني ١٤/٢٥٠ ـ ٢٥١ .

زحمة العصور وتباعدت خصائصه الفنية في نطاق الضياع الذي لف اعداداً هائلة من دواوين الشعراء .... فاعجاب يزيد لم يكن وحده دليلا على شاعرية حاجب وتقويمه له في مجلس وبحضور اعداد من الشعراء لم يأت يتيما في هذا المجال ولكن ورود ذكره في شعر بني مازن وتأكيد هذا الوجود بخط الدقاق(٥) نقلا من خط ابن حبيب تضع الشاعر في مصاف شعراء مازن الذي لم يصل الينا شعرهم ولم نجد لهم ذكراً حتى في دواوين القبائل التي احصاها الآمدي او اشار اليها ابن النديم(٦) فالضياع لازم هذا الشاعر منذ المراحل الاولى بالنسبة للرواة الاوائل ولكن وجوده حتى زمن ياقوت وبرواية ابن حبيب تضيف ديوانا الى دواوين القبائل التي زخرت بها بعض كتب القرن الرابع الهجري وان اشارة بعض المصادر الى ان من العلماء الرواة من جمعوا اشعار القبائل دون ان يحددوا اسماءها او يقفوا على ذكرها بعد ان نسبوا ما ذكروه منها الى من عرف بجمعها مثل السكري وابو عمرو الشيباني والاصمعي وابن الاعرابي وهشام بن محمد الكلبي ومحمد بن حبيب تؤكد ان اعداداً من هذه الدواوين لم تقع ضمن ما اشاروا اليه فذكروا « ابو عبيدة معمر بن المثنى »(٧) « وخالد بن كلثوم(٨) » ومحمد بن حبيب(٩) ولعل شعر بني مازن بصنعة ابن حبيب من ضمن الدواوين التي لم يشيروا اليها ولكنهم يؤكدون ان هذا البعض قد صنع دواوين اخرى لم يقفوا عليها . وهذه الظاهرة وقف عندها القدامى واشاروا اليها في بعض حديثهم عن الشعراء المعروفين بالشعر عند ذكر عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام(١٠) .

والذي يبدو ان بني مازن قد جمع شعرهم ضمن دواوين القبائل وان شعر حاجب كان ضمن هذه المجموعة الشعرية وقد اشار اليه ياقوت في حديثه عن (دير خناصره) حيث عقب على ذكره فقال : واما هذا الدير فوجدت ذكره في شعر بني مازن في قول حاجب بن ذبيان المازني ؛ وعند حديثه عن [عاقولاء] يقول كذا وجدته بخط الدقاق في اشعار بني مازن نقله من خط ابن حبيب في شعر حاجب بن ذبيان المازني . وهي اشارة تؤكد الاهتمام بشعره(١١) ولم اجد له ذكراً في فهرست ابن النديم .

ويمكن القول ان الاعتزاز بالقوم والاحساس بالانتماء والفخر بالايام الخوالد صفة متميزة عبر عنها الشاعر ووقف عندها واستذكرها وتحدث عنها بثقة ووجد في حديثه صوتاً لهواجس ودواخل ظلت تعمل في اعماقه وشعوراً بالاستذكار بقيت دوافعه حية لا توقفها نزعة ولا تحدها رغبة ولا تمنع تدفقها قوة ومثل ما كان نشيد المفاخر يجد في الايام صوتا حاداً وميداناً من ميادين المصاولة فان الشاعر حاجب بن ذبيان قد عبر عن هذه المفاخر بما يستحق لان صلته بالقوم وثيقة وحبه لهم اصيل ودفاعه عنهم صادق . [القطعة رقم ١] اذا غضبوا يخشى الناس غضبتهم وان تحدثوا كان الفصل كلامهم [القطعة رقم ١١] . وقد بلغ به هذا الاعتزاز حداً دفعه الى ان يضع شعره في خدمة قومه ويعبر من خلال قصائده عن همومهم ويتألم لالامهم كما يتألم الجريح من الكلوم بعد ان نزل بهم القحط وعمهم الجدب وساد الفقر بسبب المحل الذي اصابهم فكان جهادهم مريراً ومعاناتهم صعبة وهم يعانون من خريق الريح ومنجرد الفيوم ما اجهد قواهم واضعف حياتهم ولم يكن حديثه مقتصراً على قومه من بني مازن وانما كانت الشكوى الى الخليفة عبدالملك شكوى قيس وتميم بعد ان اقاموا في بلادهم لا يتركون ارضهم ولا يغتربون في مجاهل بعيدة حباً في الديار ووفاء للارض التي شهدت حياتهم وعاشت امجادهم ولابد ان تنتهي هذه الشكوى بطلب العون لاعاشة العيال واطعام الذين اصابهم الجهد وهو توجه يوحي بالحس القومي الذي حرك في نفس الشاعر هذه الهواجس وهي تنظر الى المستقبل البائس الذي يحيط بابناء قومه وهم يتعرضون لوضع يدعو كل المخلصين من ابناء جلدتهم الى مد يد العون لهم وتوظيف قدراتهم لاسعافهم بالوسائل الكفيلة بتأمين الحياة الكريمة

(٥) ينظر ياقوت . معجم البلدان ٢٩٣/٥ ، ٧٤/٧ .
(٦) ينظر الدكتور ناصر الاسد . مصادر الشعر الجاهلي ٥٤٣/ وما بعدها .
(٧) ياقوت . معجم البلدان .
(٨) ابن النديم . الفهرست .
(٩) الآمدي . المؤتلف والمختلف ٧١-٧٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ .
(١٠) ينظر حيوان الجاحظ ٣٨٠/٤-٣٨٢ مقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .
(١١) لعل الدقاق هو ابو القاسم عبيد الله بن عثمان بن يحيى بن زكريا الدقاق وقد ترجم له الخطيب البغدادي وقال عنه من اهل الجانب الشرقي ولد في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة وكان ثقة فاضلا توفي سنة تسعين وثلاثمائة (تاريخ بغداد ٣٧٨/١٠) .

[تنظر القطعة ٢٠] واذا كانت هذه المقطعات او بقايا القصائد التي وقفنا عندها مما تبقى من شعر هذا الشاعر قد هيأت لنا هذه الصورة وعبرت عن الهم الممض الذي عاناه الشاعر فان سمة عامة وحالة ملازمة كانت تتسرب عبر قصائده الاخرى التي لم يكتب لها الوصول حتى وقتنا هذا ولم يكشف عنها او تصل الينا في اطار المخطوطات التي بدا الزمن يجود بها وبدات ايدي الضياع ترفع عنها . واذا ما كتب لهذه القصائد ان تظهر او اتيحت فرصة العثور على شعر بني مازن كما يقول ياقوت فان دراسات اخرى ستعاد وتقويما جديدا سياخذ مجراه لا يضاح الجانب المتميز في هذا التوجه الشعري الذي برز عند الشعراء العرب بعد ان حملوا هموم قومهم وعبروا عن القضايا الانسانية الملحة التي كانت تاخذ بزمام الازمات الخانقة التي تحيط بهم وقد وجد هؤلاء الشعراء في هذه المنافذ اقداراً من الوفاء وارضاء للنفس واكراماً لصلة الانتماء التي عاشت في وجدانهم آمادا ولم ينخلوا عنها في اشد الظروف حراجة فكانت سببا من اسباب خلود ادبهم وصونا من اصوات التزامهم الانساني الكريم .

والجانب الانساني الذي يتلمسه الباحث في دفاع الشاعر عن قومه والحديث عن ظروفهم الصعبة اخذ بعده المناسب في كثير من اغراضه الشعرية وترك بصمات الحزن والرقة والوفاء بوضوح على مفرداته المتناثرة وهي تاخذ اشكالا في التغيير والوانا في المعالجة واصداء التفارب في نفس تزدحم في اجوائها اصوات المعاناة وتتداخل في حناياها حشرجات التاثر ولم تجد مجالا الا الشعر فهو صوت الضمير المعبر ووحدة القياس الصادقة ولوحة العرض الخالدة . في روايته يتعالى صوت الحقيقة وفي ادائه تستقر الهواجس الحية وفي وسائله التعبيرية تذاب همسات الالم الدفين ... وكما وجد الشاعر في قدرته الشعرية انشودة الوفاء لقومه فقد وجد في (ابنته) ــ وقد تكون تجسيداً لحالة يريد التعبير عنها من خلال هذا الصوت المثير ــ طربقا وفي نظراتها المؤلمة اثارة وفي لوحة الرحيل الشاقة توثيباً لنوازع الابوة وحنان الفراق الذي تخلقه مثل هذه الحالات عند الوداع . وهو مزمع على ترك الارض والترحل وقد قربت ركابه لتشد فتب المغادرة .. انها الصورة الانسانية الحية التي لا تعطي الانسان فرصة التصبر ولا تهيء له حالة التفكير ولا ترد عنه دموع الفراق .. قدمها الشاعر وهو يتحدث عن جزئيات الرحلة وتفاصيل الدموع وهي تعبر اكثر من الكلمات وحدود الحركات وهي تنطق بفصاحة الحالة القائمة وتصور المستقبل والمنظر ووحدة الامل الضائع في حدود المجهول الغامض وهي تختتم بعبارة «ابتا» اتتركنا وتذهب تالها .. وكثيرا ماوجد الشعراء في هذا الصوت اسبابا للتردد وفي هذه العبارات اجواء من الموسيقى النشيجية التي تمزقها تمتمات الصبية وهن يتابعن الرحلة ويعاودن المنظر على امل العزوف والمراجعة عن اتخاذ القرار المناسب ولكن بناء القصيدة الفني الذي عودنا عليه الشعراء كان يفرض هذه الحالة والتزامهم بتراكيب هذا البناء تملي عليهم مثل هذه الاثارة لتاخذ القصيدة بعدها المناسب في الوفاء للذوق النقدي السائد ؛ وصورتها المتعارفة في تركيب المفردات النقدية المالونة وهي الحالة التي لاتترك للشاعر فرصة اختزال المواقف او الابتعاد عن التفاصيل وتدفعه الى ان يعتصر في سياق حديثه مايثير كل تلك الاسباب ليعطي الحدث قوته ويمسك بخيوط الرواية المحكمة اداء وفكرة ليؤدي الغرض الذي لازمه منذ البيت الاول وهو يعيش حالة وجدانية مطلوبة فرضتها عليه حالة التعبير القومي عن هذه القضية الحاسمة . انها حالة الجدب التي تدفعه الى السير في ارض الله الواسعة بحثا عن الرزق وسعيا وراء اللقمة الكريمة ووفاء لحق الابوة في الرعاية .. ولعل قطعة حاجب الفيل [٧] تعد من النماذج الفريدة في هذا الباب لاتساع قاعدتها وتفاصيل احداثها واستثارة العواطف التي وجد نفسه قادرا عليها واختيار المواقف الملتهبة وهو باب واسع من ابواب الشعر العربي عرضت له كتب الادب واختيرت له من القصائد مايدل على قربه من النفوس ...

وحاجب الفيل في ابياته هذه التي رواها الاصمعي وانفرد بها صاحب بهجة المجالس[١٢] يقدم الجانب الانساني ويفصله وهو يمنح الكلمات دلالة الغربة فيذكر « فيضيع صبيتك »« الذين تركتهم بمضيعة » « لم يترعرعوا » « فيهم صغير ليس ينفع نفسه » « وصغيرة تبكي وطفل يرضع » « انا سنرضي ما اقمت بعيشنا » « نجوع ونشبع » « اذا ما غبت عنا لم نجد ما ينفع » «يعرض جارنا » « وتجفو موالينا » « ويقطع قريبنا الادنى » « نخاف ان تلقاك المنية » « يذلنا بعدك اعداؤنا ونضيع » « متى تؤوب الى الصفار وترجع » بعد

(١٢) ابن عبدالبر . بهجة المجالس ٢٣٢/١ .

كل هذه الصور المتلاحقة التي لاتترك للانسان فرصة المغادره ـ وكما قلت ان اللوحة مهيئاة والغرض الشعري محدود والصورة المفزعة قائمة واسباب التوسل مهما طالت فان الشاعر قد اعد الخاتمة المطلوبة ـ الا ان النهاية التي يرد بها على هذا التوسل هي « صبرا بنية واعلمي ان ليس يعدو يومه من يجزع » .

فالغربة في حياة الشاعر مسالة لها وضوحها واساليب التعبير فضية يؤديها الشاعر ويضفي عليها من همومه المتميزة وحالاته المؤترة ما يخرجها من حيث الاداء الفني عن المألوف عند بقية الشعراء الذين جابهوا الحالة نفسها ووقعوا في دائرة الاغتراب القاتل ووجدوا انفسهم أمام اوضاع قاتمة لا يمكن ان تمر دون ان تجد أصداءها في حياتهم وشعرهم واحاسيسهم ، ولهذا كان حشده لكل العواطف وجمعه للمفردات والتراكيب التي تعطي الانسان موجة الدفق الساخن ليقاسم الشاعر حنينه ويسهم معه في تحمل أعباء مسؤوليته الجماعية .

وتأتي مدائحه ليزيد(١٣) لاسباب افصح عنها احيانا بشعره وهو يعرض لذكر مدائحه فهو يقطع المفاوز والمهامه ليقول فيه ابياته ثم يعود الى اهله ليسد بما يجود عليه القائد العربي غائلة الجوع واسباب الحاجة التي ذكرها في بعض ابياته لانه يحمل هموم قومه ويسعى الى كل مكان ليحمل اليهم ما يردون به عن انفسهم الآم المخمصة وآثار المجاعة. ولابد ان تكون علاقته بيزيد قديمة ومعرفته به تمتد الى وقت طويل لان مكانته عند رفيعة ومنزلته في نفسه اثيرة ودفاعه عنه ينم عن ادراك حاجته واسرار قصده وهو ماتلمسناه في رده على ثابت قطنة . ولم تكن الحاجة وحدها دافعا للشاعر او سببا من اسباب توجهه اليه ولكن منزلة آل المهلب في نفسه ونفوس بقية الشعراء كانت الدافع الاقوى والسبب الاوجه في توجه الشاعر اليه وقصده وقد عرف يزيد بشجاعته وفتوحه وبطولته وعروبته وهي اسباب مضافة استثارت دواخل الشاعر وحملته على ان يقدم بين يديه مايراه اهلا له .. ولو لم تكن هذه الاسباب مقنعة للشاعر لاتجه صوب الاخرين الذين لم يجدوا لهم في شعره ابياتا . وحديث الشاعر من خلال قصائده يوحي بالحب المتبادل والتقدير الحق ففي اول بيت من ابياته يقول :

اليك امتطيت العيس تسعين ليلة
ارجي ندى كفيك يا ابن المهلب

ثم يبدأ بتجديد عطائه وتسمية مايحتاج اليه وهي مطالب الفرسان الذين لايريدون غيرها . فهي فرس اعوجي اصيل مشهور عدد صفاته وخصائصه وما يستحب منه أو يوصف به وبعد أن يعرض للوحة التقليدية في تشبيه فرسه بالعقاب المتدلي من شماريخ كبكب(١٤) ينتقل الى الحديث عن طلبه درعا اتقن القين صنعها . واسمر خطيا طويلا مجربا وابيض من ماء الحديد كانه شهاب وبعدها يختم القصيدة بفخره بنفسه حيث يقول ..

فاني امرؤ من عصبة مازنية
نماني اب ضخم كريم المراكب

وهي صوره اخرى من صور اعتداده بنفسه وفخره بابيه وثقته بقبيلته وليس غريبا بعد هذا ان يكون الحوار بين فارسين يعرف كل واحد منهما منزلة صاحبه ويدرك حاجته التي يدفع بها عن نفسه جور الاخرين وظلامة المعتدين . والقصيدة نسق متوافق ووحدة متكاملة وعبارة واضحة لا يداخلها المديح الزائف ولا تزينها المبالغة السمجة فهي نموذج لهذا الضرب الفني من المديح الذي يضع الشاعر في مستوى الممدوح مع ماهو معروف به الممدوح من منزلة وشهر به من قيادة وتولاه من مناصب وحقق من فتوح في بلاد فارس [تنظر القطعة ٢] . وفي بيتين يوردهما ابو الفرج يتوجه الشاعر عين الاتجاه ويذكر يدي المهلب التي يجزي بواحدة من عصا وفي يده الاخرى يطعم الجائع [تنظر القطعة ٣]

ويتحلى صدق مديحه ليزيد في ابيات اخرى وهو يضعه الموضع الذي يستحق ويترك الكمي في الهياج مجدلا ، يجلل مفرق رأسه ذا رونق عضب المهزة صارما مصقولا ، يقود الجياد وهو يافع ويؤمل عليه وقد اكتهل وهو في كل احواله يمتن على من يستحق ويجبر معا شرا ويشفي عليلا . انها وفاء الشاعر لهذا الفارس العربي وحبه له وهو يحقق الانتصار في المعارك . ولابد ان تكون

(١٢) ولي خراسان بعد وفاة ابيه المهلب سنة ٧٢ في خلافة عبدالملك بن مروان وعزل عنها سنة ٨٦. وتولى امر خراسان ٩٧ ومات سنة ١٠٢ .

(١٤) ينظر دراستنا التفصيلية عن هذه الظاهرة في كتاب الطبيعة في الشعر الجاهلي ١٨٤-١٨٦ .

قصائد حاجب الفيل الضائعة تاريخا تفصيليا لما قدمه هذا البطل الخالد في المعارك الحاسمة [تنظر القطعة ١٦] .

وتاتي قصيدة واحدة في مخاطبة مسلمة بن عبد الملك [توفي سنة ١٢٠ للهجرة] بعد ان جاء كتاب يزيد بن عبدالملك ، الى محمد بن عمرو وكان العريات بن الهيثم على شرطه ان اضرب رقاب الاسراء . ولكن وصل كتاب مسلمة متاخرا بعد ان فزع من قتلهم والقصيدة فيها لوم لما اقترف من اثم وبعد ان خفت دماء الذين شهروا السيوف ولكن القتل جرى على من وقف يدافع عن الحق فرقى بهم صاحب الشرطة فرسان قومه والشاعر يعجب من هذا التصرف الذي فقدت فيه الامانة واستبيح العدل [تنظر القطعة ١٠] .

[١]

قال حاجب بن ذبيان المازني في يوم الدفينة

[من الطويل]

بنو مازنٍ قومي ومن يكُ فاخراً ... بايام قومي مازنٍ لا يُكذَّبُ
هُمُ أنزلوا صُهْبانَ قسراً واقعصوا ... بحيراً واطرافُ القنى تتصبَّبُ
وهُمْ قتلوا بكراً بُحِرَّ بلادهم ... ونال حُصيْناً بالدفينةِ مِقْنَبُ

الابيات [١-٣] في النقائض ١/٣٩٢ - ٣٩٣ .

[٢]

ودخل حاجب على يزيد بن المهلب فلما مثل بين يديه أنشده :

[من الطويل]

اليك امتطيتُ العيش تسعين ليلةٍ ... أرجّي ندى كفيّك يا ابنَ المُهلبِ
وانت امرؤٌ جادت سماءُ يمينهِ ... على كل حيٍّ بين شرق ومغربِ
فتجدْ لي بطرفٍ أعوجيٍّ مُشهَّرٍ ... سليم الشظا عَبْل القوائم سَلْهبِ
سبوحٍ طموح الطرف يستنُّ مِرجمٍ ... أمِرٍّ كأمرارِ الرّشاء المشذَّبِ
طوى الضُّمرُ منه البطن حتى كأنه ... عقاب تدلت من شماريخ كبكبِ
تُبادر جُنح الليل فَرخين أقويا ... من الزادِ في قفرٍ من الأرض مجدبِ
فلما رأتْ صَيْداً تدلّت كأنها ... دلاةٌ تهاوى مَرقباً بعد مَرقبِ
فشكّت سواد القلب من ذنب قفرةٍ ... طويل القرى عاري المظام مُعَصَّبِ
وسابغةٍ قد اتقن العين صنعها ... واسمر خطيٍّ طويل مُحرَّبِ
وابيض من ماء الحديد كأنه ... شهابُ متى يلقَ الضريبة يقضبِ

وقل لي اذا ماشئت في حومة الوغى تقدّم أو اركبْ حومة الموت اركبِ
فإني امرؤ من عُصْبةٍ مازنيةٍ نماني أبٌ ضخمٌ كريمُ المركبِ

الابيات في الاغاني ١٤/٢٤٨ ـ ٢٥٠ .

[٣]

وقال حاجب يمدح يزيد :

[من الطويل]

١ ـ شِمِ الغيثَ وانظر ويك اين تبعجتْ كلاه تجدها في يد ابن المهلب
٢ ـ يداه يدٌ يُجزى بها الله من عصى وفي يده الاخرى حياةُ المعصب(١)

الابيات في الاغاني ١٤/٢٥١ .
(١) المعصب : الذي عصبته السنون اي اكلت ماله والذي يتعصب بالخرق من الجوع .

[٤]

وقال حاجب بن ذبيان المازني :

[من الطويل]

١ ـ ما ابلٌ في الناسِ خيرٌ لقومها وأمنعُ عند الضرب فوق الحواجبِ
٢ ـ من الأبل الحادي عُضَيْدةَ خلفها من الحَزْنِ حتى اصبحت بعباعبِ

البيتان في بلدان ياقوت [عبعب] .

[٥]

قال حاجب بن ذبيان المازني يرثي أخاه معاوية بالبيضاء .

[من الطويل]

١ ـ تطاول بالبيضاء ليلى فلم أنمْ وقد نام قَسّاها وصاح دجاجُها
٢ ـ مُعاوي كم من حاجةٍ قد تركتها سَلُوباً وقد كانت قريباً نِتاجُها(٢)

البيتان في بلدان ياقوت [البيضاء] .
(٢) السلوب في النوق التي القت ولدها لغير تمام .

[٦]

قال حاجب بن ذبيان المازني :

[من الكامل]

١ ـ هل رام نَهْيٌ حمامتين مكانَهُ أم هل تَغَيّرُ بعدنا الأحفارُ

٢ ــ ياليتَ شعري غير مُنيةِ باطلٍ والدهر فيه عواطفٌ أطوارُ
٣ ــ هل تَرْ سُمْنٌ بي المطيةُ بعدها يُخدَى القطينُ وترفَعُ الاخدارُ

الابيات في بلدان ياقوت [الأحفار] . و[حمامة] .

[٧]

انشد الاصمعي لحاجب الفيل اليشكري

[من الكامل]

١ ــ لما رأت بنتي باتّى مُزمعٌ بترحُّل من أرضها فمُودِّعُ
٢ ــ ورأتْ ركابي قُرِّبتْ لرحالها قالتْ وغربُ العين منها يدمعُ
٣ ــ أبتا اتتركُنا وتذهبُ تائها في الأرض تخفِضُك البلاد وترفعُ
٤ ــ فيضيعُ صبيتُك الذين تركتهم بمَضيمةٍ في المصر لم يترعرعوا
٥ ــ فيهم صغيرٌ ليس ينفعُ نفسهُ وصغيرةٌ تبكي وطفلٌ يرضَعُ
٦ ــ انّا سنرضى ما أقمت بعيشنا ما كان من شيء نجوعُ ونشبعُ
٧ ــ واللهُ يَرزُقنا فنرضى رِزقَهُ وكفى بحسن معيشةٍ مَنْ يقنعُ
٨ ــ انا اذا ما غِبْتَ عنّا لم نجدْ مما تَخلّفَ عِندَنا ما ينفعُ
٩ ــ تجفو موالينا ويُعرضُ جارُنا وقريبنا الأدنى يعزّ ويقطعُ
١٠ ــ ونخاف أن نلقاك وشك منيّةٍ فيصيبنا الأمر الجليل المُفظِعُ
١١ ــ فنصيرَ بَعْدَك ليس يُرفَعُ بيننا وَيذلُّنا اعداؤنا ونُضيَّعُ
١٢ ــ هذا الرحيل وأمرُنا ما قد ترى فمتى تَؤوبُ الى الصّغار وترجعُ
١٣ ــ فَخنقتْ من قول الصّغار بعبرةٍ كاد الفؤادُ لقَولِهم يتصدعُ
١٥ ــ واجبتُها صبراً بنيّةُ واعلمي إن ليس يعدُو يومَهُ من يجزعُ

الابيات في بهجة المجالس ٢٣٢/١ .

[٨]

قال حاجب الفيل يهجو ثابت قطنة

[من البسيط]

١ ــ ابا العلاء لقد لُقّيتَ مُعضلةً يومَ العرُوبة من كَرْبٍ وتخنيقِ
٢ ــ أما القرآن فلم تُخلَق لمحكمه ولم تُسدَّد من الدنيا لتوفيقِ

٣ ــ لما رمتكَ عيونُ الناسِ هبتَهمُ فكدتَ تشرقُ لما قمتَ بالريقِ
٤ ــ تلوي اللسانَ وقد رُمتَ الكَلام به كما هوى زلقٌ من شاهق النيق(٣)

(٣) النيق : ارفع موضع في الجبل .

الابيات في الاغاني ٢٤٨/١٤ .
والابيات [١ــ٤] في الطبري ٣٨/٧ــ٣٩ والكامل في التاريخ ١٣٢/٥ وهي مختلفة من حيث الترتيب والرواية ...
فرواية الاول .. ابا العلاء لقد لاقيت معضلة .
والثاني ..
اما القران فلا تهدي لمحكمة من القران ولا تهدى لتوفيق
والثالث ... لما رمتك عيون الناس صاحية انشأت تجرض لما قمت بالريق .
والرابع ... تلوي اللسان اذا رمت .
والرابع .. تلوي اللسان اذا رمث ..
وهي في خزانة الادب ١٨٥/٤ .

[٩]

قال حاجب بن ذبيان من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم يخاطب مسلمة بن عبدالملك :

[من الطويل]

١ ــ أمسلم انا قد فصحنا فهل لنا بداكم على اعدائكم عندكم فضلُ
٢ ــ لَعَمري لقد خاضَتْ مُعيَطٌ دماءَنا بأسيافها حتى انتهى بهمُ الوحلُ
٣ ــ وما حُمِلَ الأقوامُ اعظمَ من دَمٍ حرامٍ ولاذَ حلْ اذا التُمس الذَجلُ
٤ ــ حقنتمُ دماءَ المُصلتين عليكُم وجُرَّ على فُرْسانِ شيعتك القتلُ
٥ ــ وَفى بهمُ العُريانُ فرسانَ قومه فيا عجباً أينَ الأمانةُ والعدلُ(٤)
٦ ــ أقام بعاقولاء منا فوارسٌ كرامٌ اذا عُدَّ الفوارسُ والرَّجلُ

[١ ــ ٦] عدا الثاني والخامس في بلدان ياقوت(عاقولاء) وقال : كذا وجدته بخط الدقائق في اشعار بني مازن نقله من خط ابن حبيب في شعر حاجب بن ذبيان المازني .
والابيات ٢ ــ ٥ في الطبري ٥٩٩/٦

(٤) العريان بن الهيثم : صاحب شرطة محمد بن عمرو بن الوليد .

[١٠]

وقال حاجب بن دينار المازني :

[من الطويل]

ونحن بَنوُ الفحل الذي سَالَ بَوْلُه بكُلِّ بلادٍ لا يبولُ بها فحلُ

أبى الناسُ والأقلامُ أن يحسِبُوهُمُ اذا حَصَلَ الاخماس أو يُحسبَ الرّملُ
فإنْ غضبوا شدّوا المشارفَ منهمُ ملوكٌ وحُكّامٌ كلامُهمُ فَصْلُ

الابيات الثلاثة في البيان والتبين ١٨٧/٢ .

[١١]

وقال حاجب بن ذبيان المازني :

[من الطويل]

وكم من عدُوٍ قد اعتنتْ عليكمُ بمالٍ وسلطانٍ اذا سَلِمَ الحبلُ
كذي الكلب لما اسمن الكلبَ رابَهُ باحدى الدّواهي حين فارقه الجهلُ

البيتان في حيوان الجاحظ ١٩١/١ وفي الاصل . حاجب بن دينار وهو تحريف وتصحيف .

[١٢]

ولحاجب الفيل مهاجاة معروفة مع ثابت قطنة، منها ابياته ..

[من البسيط]

تقضي الأمورَ وبكرٌ غيرُ شاهدها بين المجاذيف والسكان مشغولُ
مايَعرفُ النّاسُ منه غيرَ قَطْنَتِه وما سواها من الأبناء مجهولُ

(١) الابيات في الطبري ٣٤/٧ .
والثاني في خزانة الادب ١٨٥/٤ ونسب الى ثابت قطنة وله قصة في ١٨٦/٤ .

[١٣]

ولج حاجب يهجو ثابتا فقال فيه :

[من البسيط]

لا يَعرِفُ النّاسُ منه غيرَ قَطنتِهِ وما سواها من الانسابِ مَجهولُ

الاغاني ٢٥٠/١٤ والبيت في اللسان [قطن]وروايته .. من الانسان مجهول قال ابن بري قال ابو القاسم الزجاجي قال ابن دريد سمعت ابا حاتم يقول : اصيبت عين ثابت قطنة بخراسان فكان يحشوها قطنا فسمي ثابت قطنة وفيه يقول حاجب الفيل :

[من الطويل]

بني الضلع العوجاء انت تقيمها الا ان تقويم الضلوع انكسارها

البيت في اللسان [ضلع]
وفي الطبري ٣٨٣/٥

[١٤]

قال حاجب بن ذبيان المازني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم :

[من الطويل]

١ ــ اذا ما التقينــا لا هــوادةَ بيننــا ... فباسـت اتـى مـن قـال مـن ألمٍ مَهْـلا
٢ ــ فـإن بفَلْـج والجبـال وراءه ... جمـاهير لا يرجُـو لهـا أحـدٌ تبـلا
٣ ــ وإنّ على خـوف اللّهابـة حاضراً ... حِراراً يسـنّونَ الأسـنّة والنبـلا

الابيات في بلدان ياقوت [اللهابة] . وفي البيت الثاني بياض ..

[١٥]

وقال يمدح يزيد بن المَهلب :

[من الكامل]

١ ــ كـم مـن كميٍّ في الهيـاج تركتـه ... يَهـوي لفيـه مُجـدّلاً مقتـولا
٢ ــ جلّلتَ مفـرق رأسـه ذا رونقٍ ... عضَـب المهـزّةِ صارمـاً مصقـولا
٣ ــ قـدْتَ الجيادَ وانـت غـرٌّ يافـعٌ ... حتـى اكتهلتَ ولـم تـزلْ مأمـولا
٤ ــ كـم قـد حربتَ وقـد جبرت معاشـراً ... وكـم امتننـت وكـم شفيت غليـلا

الابيات في الاغاني ١٤ / ٢٥١

[١٦]

وقال حاجب يهجو ثابتا :

[من الطويل]

١ ــ دعونـي وقحطانـاً وقولـوا لثابـت ... تَنَـح ولا تقَـرب مُصـاولة البُـزْلِ
٢ ــ فللزنج خيرٌ حين تُنسـب والـداً ... مـن ابنـاء قحطـان العفاشـلة الغُرْلِ (٥)
٣ ــ أنـاسٌ اذا الهيجـاء شـبّت رأيتهم ... أذلّ عـلى وطء الهـوان مـن النعـل
٤ ــ نـاؤهم فوضـى لمـن كان عاهـراً ... وجيرانهـم نهبٌ الفـوارس والرجـل

(٥) العفاشلة جمع عفشل وهو الفيل الوخم والغرل جمع اغرل وهو الذي لم يختن
الابيات في الاغاني ١٤/٢٥٢ ــ ٢٥٣ .

[١٧]

قال حاجب بن ذبيان المازني :

[من الوافر]

١ ــ فإن أرحَـلْ فمعروف رحيلـي ... وأن أقْعُدْ فما بـي مـن حُمُولِ
٢ ــ لقـد قـرّت بقَنْدابيـل عينـي ... وسـاغ لـي الشـراب الـى الغليلِ
٣ ــ غـداةَ بنوالمهلّب مـن أشـير ... يُقـادُ بـه ومُسْتَلَبٌ قتيلـي

الابيات في بلدان ياقوت [قنداببل] وقال : مدينة بالسند وهي قصبة لولاية يقال لها (الثدعة) كانت فيها وقعة لهلال بن احوز المازني الشاري على آل المهلب .

[١٨]

قال حاجب المازني :

[من الوافر]

١ ــ صحا قلبي وأقصرَ غيرِ أنّي أهشّ اذا مررتُ على الحمُولِ
٢ ــ كسونَ القادسية كلّ قرنٍ وزيّنَ الأشلّةَ بالسُّدول(٦)

البيتان في اللسان [قرن] و [شلل] والثاني في اللسان [سدل] وقال ويروى .. تسون الفارسية

(٦) القرن : قرن الهودج والسدل : السمط من الجوهر وقيل من الدر يطول الى الصدر والسدل : جمع سديل وهو ما أسبل على الهودج ؛ والشليل : الكساء الذي تحت الرحل وقيل الحلس الذي يكون على عجز البعير .

* يبدو ان هذه القطعة والتي قبلها من قصيدة واحدة الا انني لم اجد مصدرا يجمعها فآثرت ابقاءها كما وردت امانة لضوابط التحقيق .

[١٩]

قال حاجب بن ذبيان المازني :

[من الوافر]

١ ــ وما أنا يوم دير خُنَاصرات بمرتَدّ الهموم ولا مُليم
٢ ــ ولكنّي المِتُ بحال قومي كما ألِمَ الجريحُ من الكُلُوم
٣ ــ بكوا لعيالهم من جهْد عامٍ خريق الريحِ منجردِ الغُيُوم
٤ ــ أصابَت وابلاً والحيّ قيساً وحَلّت بَركتها بني تميم
٥ ــ أقاموا في منازلهم وسيقَتْ اليهم كلّ داهية عقيم
٦ ــ سواءٌ من يُقيم لهم بأرضٍ ومَنْ يَلْقى اللُّطَاة من المُقيم
٧ ــ أعِنّي من جَدَاك على عيالٍ وأموالٍ تُساوك كالهشيمِ
٨ ــ أصَدّتْ لا يشيم لها حواراً عقيلةُ كلّ مرباعٍ رؤوم

الابيات في بلدان ياقوت [دير خناصرة] وقال : واما هذا الدير فوجدت ذكره في شعر بني مازن في قول حاجب بن ذبيان المازني ؛ مازن بني تميم بن عمرو لعبدالملك بن مروان في جدب اصاب العرب فقال :

[٢٠]

انشد ابو عبيدة لحاجب بن ذبيان المازني :

[من الطويل]

١ ــ هُمُ انزلوا يوم السُّلَى عزيزها بسُمْرِ العَوَالي والسُّيوف الخواذم

السلى : موضع في بلاد بشكر وفيه اغارت بنو مازن على بني بشكر فاصابوا منهم وقتلوا تيم بن تعلبة اليشكري ؛ ومقرون بن عتاب العجلي ؛ وانشد ابو عبيدة لحاجب بن ذبيان المازني في هذا اليوم .
البيت في معجم ما استعجم ٧٥٣/٣ .